



قصيدة النثر، الكلمة المرندة، الإنسان... «نسيب الرخام والشمس»

بنتم هاني صيب

« ان شائي في النقد اذا ما حاولتسه ،
كفمك اصيحا من ظمأ في بركة شمس ،
او كارتكاض نحلة على منزلق ورد. فالتعاطف
عندي وحده احتمال نقد ، اذ قلما اختزن
سحابة جوفاء في يدي ، او اظن فسي
خضرة طحلب . »

هـ . ص .

— ١ —

« صديقي العزيز . لك عندي اعتراف صغير . وهو اني بعد قراءتي
للمرة العشرين على الاقل، للكتاب «نسيب الرخام والشمس»
لـ « ألويسيوس برتران »
Aloysius Bertrand
(كتاب انت وانا نعرفه ، ويعرفه بعض اصدقائنا ، ليس له ملء
الحق بلقب ممتاز ؟) جاءتني الفكرة بان احاول شيئا من هذا النوع
وان اتناول وصف الحياة المعاصرة ، او بالاحرى ، وصف حياة معاصرة
واكثر تجريدا ، بالطريقة التي تناول بها تصوير الحياة القديمة الممتنة
بفسرابة .

« فمن منا لم يحلم في ايام طموحه ، بمعجزة نثر شعري ، موسوق
من غير وزن ولا قافية . نثر طبع قليل العثار ، يوافق حركات النفس
الفنائية ، وتموجات الحلم ، وفقرات الضمير ؟ »
هذا مما قاله « بودلير » لصديقه « ارسين هوسي » في رسالة
صدر بها مجموعة قصائده النثرية . وكأنه بهسدا الاعتراف ، يشق
اهدابنا على اول رصد لنموذج ، يعده بعضهم اليوم ، كأميرز واسطة
للتعبير عن جيلنا بين احتفال الشعر التقليدي الرتيب وحيرة الشعر
الححر .

على ان النقاد يلحقون ببرتران اسمين آخرين لا يجهلها بودلير ،
هما : « لوفيفر - دوميه » Lefèvre-Deumier صاحب « كتاب
المنزّه » (١) . و « موريس دي جيران Maurice de Guérin
صاحب قصيدة « القنطوس » (٢) النثرية ، المنشورة عام ١٨٤٠
في مجلة La Revue de Deux-Mondes ، وعدة رسائل
اخرى حازت على تقدير سانت بوف ، يمكن ان نقتطع منها قصائد
نثرية (٣) شبيهة بأسمى ما عند البحيريين الانكليز (٤) من خيالات .
ويدلون على ذلك ، بان نية بودلير كانت تميل اولا الى تسمية
كتابه بعنوان « المنزّه الوحيد » فوق ما استعاره من عناوين لقصائد
كالرأة ، الجسر والساعة ...

وبعد ، فاذا كان بودلير تابعا ، فاية شمة نفلجت على أجبين
اولئك الثلاثة ؟
في رسالة بودلير الى صديقه ، يرجع ميلاد هذا النموذج المسيطر،
الى مخالطة المدن الكبرى ، وتشابك علاقاتها التي لا يظالها حصر .
ويحتطب آخرون الجذور في أرض الطقوس المزروعة بالزمامير
والزباحات .

واخرون ينهبون الى ان ذاك العصر ، وكان مرمى لوضع مجموعات
من المنتجات الشعرية الاجنبية ، ظهرت بحجة الترجمة ، في نسياب
قصائد النثر . وراحت تتعري على مرأى من شبق المثقفين . فمجموعة
« قصائد وأغان شعبية من المانيا » على الاخص ، الصادرة عام ١٨٤١ ،
كان لها في وسطهم ، حماس اذن لاظفر نغم ، وعطش خلق الى رئة
خابية .

قد تتراشق الافواه حول المنابع ، وانما الحكم الذي لا ينوشه
ضرس جدل ، هو ان بودلير كان المكهرب الواعي الاول لشريط الانطلاقة
الحديثة . فان يكن « برتران » قد حبل ذهنه انفافا ، فان بودلير
قد اقبل على عمله عن سابق تصور وتصميم في لغة القانون .

هذا في فرنسا . واما عندنا فآين اللقاح المثر ؟
انه لا يختلف كثيرا عما هنالك . الا اني احصره في الترجمة
والاطلاع المباشر ، واستبعد العوامل الاخرى .

وثمة لقاح عندنا يجيء في الدرجة الثانية . هو بعض آتسار
جيران خليل جيران وميخائيل نعيمة في تأملاتهما الجنحة (١) .
والاهم في الواقع . هو تمردنا اخيرا على البيت الكلاسيكي .
ورفضنا لكل قيد او قاعدة مومياء . واتساع مفهوم كلمة « شعسر »
التي لم تعد تعرف بالوزن والقافية والا فهي نثر . واطراحننا للمقام
التي تردد مثل هذه النفايات :

« ان غناء البلبل قصيدة شعر ، وغناء الاوزة قصيدة نثر »

(اوسكار وايلد)

« النثر انساني والنظم الهني »

(بول سوداي)

« النثر لا يوجد ، فحيث الجهد في الاسلوب ، هناك النظم »

(مالاريمه)

لم يبق للنظاميين التقليديين كسرة مجد . لقد هوت سدة العرش
من تحت « اقفيتهم المزرقة » ، وتحطم الفخار المكس على رفوفهم .
« الالهة ذاتها تموت . ولكن الاشعار السامية تظل اقوى من
الفلز » (٢) ، « يهتف « تيوفيل جوتييه » .

اذن . ما الذي يرجع قصيدة نظم على قصيدة نظم ومن ذات
الوزن ، ان لم تكن تلك الرقية الخفية المشعة التي اسمها « الشعر » .
تلك الرقية التي ما مرت بانملة على ساق كلمة ، الا وزعتها في نهدي

(١) لن اظيل البحث هنا ، اذ القصد من هذا التمهيد ، هو ان اعرف
القارئ باختصار بقصيدة النثر الجديدة على ادبنا ، كسي
يتمكن من متابعة الاحكام التي ساطلقها على « نسيب الرخام
والشمس » .

(٢) سبيكة من النحاس والتصدير .

و « نشيد الرخام والشمس » ، هذا العطاء الخصب ، يقتات من شبيبة قصيدة النثر بمقدار . كل قطعة فيه الا القليل القليل ، عالم مغلق على نفسه ، وكذلة مشعة محملة في حجم صغير بالمسافات الايحائية .

تعفية فنية جديدة ، تحبس الزمن في نسق ايقاعي خاص، لتسلمه الى زمن منغم معقول ، قد انقذ من الجري المتصل في الصيرورة ، ودحرج في اللازمية « كلا لا تدريجيا » . فالنهاية على مستوى البداية ذاته في القصيدة . والجمل تلف في دائرة ، تتناظر وتجهد في ادھاشنا واذاقنا غفلة الزمن وادراجه .

فان تطف ريشتك في محبرة الازل ، وتخرج على اطرافها التاريخ المتعاقب مخترا في اشكال متحركة في اللازمية كما الموسيقى ، ذاك هو التخم الصوان للقصيدة بفرعها الوزني والنثري بالاخص .

ويلفك « نشيد الرخام والشمس » ابدا يعيون اربعم من اي شبك تطل عليه . لقد قسم نقولا قربان قصيدته مثل بعض رفاقه الغربيين في النوع ، الى مقاطع متساوية ، يفصلها بياض او « حالات صمت » تخلق نفما وترفع « قاعدة روحية » للقصيدة ، وتوسيع للايحاءات في كل مقطع ان تتناول موبجانتها وتندري في داخلنا .

وهو كرفاقه الغربيين في النوع ايضا ، قد ادخل التقفية احيانا والتكرار والترديد بصور مختلفة او بكلمات وعبارات في اول المقطع او اخره . مما اعان الفكرة الشعرية على ان تلف على ذاتها ، مشيرة بذلك الانفعال الدوري لندائرة مغلقة :

« وظل في فؤادي بلد عريش يعمرى ، وحغل خريفى الثمر ، وسرب طاووس بلا ريش ! وظل في فؤادي خليج بلا قمر ! امي ايا جميلة الدار ، كنت قارة الزهر ، وكنت خليج النار ، فمن صيرك مقبرة الثلج يا امي ؟ وظل في فؤادي خليج بلا قمر . » من (جسد وغاية رياحين)

ان نقولا قربان ، اذ تمرد على قواعد الشعر المعرف ، شيد له مقصورة فردية صريحة تخبيء فوضى ساخطة ، تريد ان تصنع عالما ثانية على هوى منها. وان تقيم النظام الذي تريد ازاء النظام

الذي يوجد . حتى انه قد اتبع في غير مكان ، طريقا في عنوانه قصائده ، توهمك ببعدها عن المحتوى لتقريبك الى صواها بامعان من روية . فهو في « أرغن الصمت » يكور في جفنيك فتاة تتحدث الى امها عن احلامها الكبيرة . ويمر العنوان على لسانها :

« ولكني ساهب جسدي الى رجل تكثر المجاذيف في عينيه ، ويكون جسده كارغن الصمت » .

وتعيد النظرة فتجد ان أرغن الصمت لم يكن ذلك الرجل البطولي المتناول كالصمت وحسب . بل ان تلك الفتاة تحمله في بدنها ايضا ولا تدري . كانت كاللارد ، والمارد يحب كمارد ، وحب المارد لا يقدر حتى على ان يدفن في البيت ذي السوسن المانج ، كما يقول ناظم حكمت .

وهو في « دبكة وخيل عربية » يفيد من المعنى الوراثة ، اظن ، لهاتين اللفظتين . فالخيل معقود في نواصيها الخير . واما الدبكة فلا تزال في سحر من نثقات مارس المحقق في اذني خادمه «الليكترون» ابياها الاول . اذ صرخ به : اذهب اذن ، فلن نطعم عينك غمض الفجر ابدا ، وستفيق قبل الجميع لتصبح في الثامن : الا هبوا ايها الفعاة ، فها أبوللو يجر عربة الشمس .

فانت ان لم تقم المجالات الماورائية للفظة عند نقولا قربان تتهمه

نجمة سوداء كانت مع الخليل او ضده ؟

وما الذي يشيل في عينك قصيدة لم تعبا في سلك ، فتصيح : هذا شعر . ويخفض قصيدة منظومة ، فتصيح : هذا نظم ، نظم . برغم من ايقاعها المطرب الى حد التمل ؟! .

نعم ، قد يزيد النظم من جمال الجملة الشعرية . ولكنه ليس مرادفا لكلمة « شعر » تماما للعادة ، ولا نافيا لها في سواه .

نتيجة عدل في نظري ، اسوقها في زحمة الابواب العاوية حتى في وجه الوزن الحر ، لتصورها عن اللعب بمفاتيحه .

ان قصيدة النثر حاجة خلق مدنية . وليست نقضا او الفاء كذا يظن البعض . فالحاجة لا تلغي الحاجة . وماكس جاكوب ، وبول ايلوار ، وريفيدي ، ورييه شار ، وهنري ميشو مثلا ، لم يلتجئوا الى هذا اللون عن عجز . بل عن ضرورة لابداع لفة شعرية جديدة في المدنية الجديدة . وعن تشوف الى تسمير الحرية الانسانية على لوحة المدى . وبرهاني ، هو انهم يأكلون من ثمار الشجرتين حسب قابليتهم .

ولم ابعد ، ونقولا قربان صاحب « نشيد الرخام والشمس » يعطيني ايضا المثل الاقرب على ذلك .

أما اذا قيل لي : هوذا سان - جون بيرس كالسد العظيم بقصائده النثرية المحاض . فأجيب بان هذا الشاعر قد هرب من قيود ، ليزج نفسه في قيود اشد ، وانظمة وهندسة وتكتيك اقرب جعلته خارج زمنه . والان ما هي قصيدة النثر ؟ (١)

- هي كل ما نريد (فرنان ديفوار)
- انها لا تحدد (اندريه مورا)

- هي ان تحرك حول فكرة ، أضواء النفس المختلفة ، على مسافة مقصودة ، بواسطة جهل مقطعة الى فقر ، تسمح للشاعر ان يظهر بهيئة قطع شاملة وموجزة ، مثل تلك الايقاعات المباشرة للفكر النسقة في العروض . (مالارميه)

- هي كل نثر في اطار محدود ، يلف فكرة ، صورة شعرية اصلا ، بأسلوب مباشر ووجيز اختياري . (جاستون بيكار)

- هي قطعة من نثر مأسورة بكفاية ، متحدة ومشدودة الى ذاتها ككتلة بلور تلعب فيها مئة انعكاسة مختلفة . (جالو)

نحانة يسيرة ما ترى ، من جدار التحديد لقصيدة النثر . الا انها تفي لتتشك في دربنا ركانزها الثلاث التالية التي انتزعتها « سوزان برنار » مؤلفة الكتاب الضخم Le Poème en Prose

من حزمة أضواء وهي :

- الإيجاز او الحصر
- الثقل
- المجانية (٢)

(١) كثيرون يخلطون بينها وبين الشعر المنثور . ان هذا الاخير مشتق من الشعر الحر ومقلد له . في حال ان قصيدة النثر تقف كتعفية فعلية مستقلة وكجوهر غنائي وفقا لاصول صارمة كما الشعر الموزون . وانما عرضية لم يملها الاستعمال .

(٢) على قصيدة النثر ان تشغل كل عنصر من داخلها او خارجها في اهداف شعرية بحتة . اي ان لا تنبسط كما الاسلوب النثري الوصفي او القصصي الروائي في تنابع الاعمال والافتكار . بل ان تعرض ذاتها ككتلة لا زمنية . والا انغمست في النثرية الخشبية الصدى .

بالجنوح ، وتروح كما قد تفعل هنا ، باعتبار « دبكة وخيل عربية » جزءا من كل ورد في القطع الأخير :
 « ويقدم فلاحو النيل لفلاحي الارز دبكة وخيلا عربية وعلمسا للجهورية مطرزا عليه شجرة الحرية » .
 في حين انها رمز لليقظة الدائمة التي نشد ، والخير الدائم الذي نستشرف ، وكان صوت دبكة يهدر ، وكر خيول تحفر على جبين كل كوكب :

« - لن تكون ارضنا بستانا للحديد ولحم الاطفال ، انها بستان الكرم والزيتون ، والشفاة التي تبارك الانسان .
 - ولن نجعل انهارنا مدنسة الضفاف ، ولا شعر نساننا كفسا لاجساد الجنود ، بل لصنع السفن المحملة بالخمر والموسيقى .
 - والى الابد فليعاق مرفانا جسد الشمس ، لان الفجر مطل علينا بين جبلين شاهقين » .

يمثل هذه المجالات - المفاتيح تمنحك نفسها تلك « الدينامية المنفجرة » اللفظ « النشيد » . اذ ان المضمون متصل بها بوحدة الجوهر . فالكلمات التي تشكل القصيدة لا تتفتح من معناها الواضح ، وانما من جميع كثافتها العنصرية ومن علاقات بعضها ببعض .

- ج -

كانوا في القديم حين ينظرون ، باتون بكبش او بغيره من البهائم . ثم يضع كل يده عليه ، مفرغا دنسه ، ثم يسيرون به الى المحرقة . (راجع اللاويين - التوراة)

بهكذا عقيدة ، يفرز صاحب « النشيد » هدبه في عرق الكلمة ساكبا فيها « اعصابه ودمه ، وطائفاته العقلية والنفسية » ثم يفصده ليشل حبلًا من الهوائف الهاربة المفنطة .

الكلمات - هنا - انتهت من اللعب ، الكلمات تتحاب على حد تعبير « اندريه برينون » في « الخطي الضائعة » .
 الكلمات - هنا - وهذا ما علينا ان نعزمه في القصيدة خاصة ، تتعكس حتى تظهر كما لو فقدت لونها الذاتي ، برأي « المارميه » في « حديث عن الشعر » .

سوى انها - هنا - تختلف نوعا عما هي عند الرمزيين الذين سجنوها آونة في طلمس بارد ، وعما هي عند السرياليين الذين بدل ان يطوعوها بهارة لتبدع صلات جديدة ، خضعوا لها ولقواها الكائمة ، وتركوها تتجاذب وتتجمع في صف غير اعتيادي ، قادما الى العيشية .

ان للكلمة في « النشيد » نكهة مميزة ، اكتسبت قيمتها من هضم الشاعر لزيج من المفاهيم .

ولعل من اكثر ما تصادف ، كلمة « اخضر » التي تعني الفرح والامل والبعث والنصارة .

« الى الذين اشتبهوا رائحة الرماد الاخضر .
 - ويهرق على الدرب الصياح (اي الديك) وكأنه لم يولد من مجموع احلامنا الخضر .

« ولد اليوم عندنا مسيح جديد ، عامل من العمال الطبيين ، له عينان كزنبقتين خضراوين .

« واصوات في الغاب ، صوت فاس مزنة بذرار ، وتاكل من كف ومن كتف ومن عري الشماع ، وتفيق مع الذئب والقطيع والضبواب ومع الربيع في مقالع الحجر الاخضر .

حتى طائر « الفينيق » يتدفأ بخيوطها :
 « ويحترق على شفتيه الطائر الاخضر ، طائر الحب الذي يحيى من الرماد » .

كان الشاعر يفني لهذا اللون بلسان غارسيا لوركا في « اغان عجيبة » :

« اينها الخضرة ، انت التي احبك اينها الخضرة
 يا خضرة الريح وخضرة الاغصان

الحصان في الجبل
 والزورق في البحر
 وشريط ظل على قوامها
 وهي تحلم على شرفتها
 بخضرة وجه وخضرة شعر
 واحداق من معدن بارد

اينها الخضرة انت التي احبك اينها الخضرة » .

وباتيك نداء كلمة « الشمس » وسع حنجرة « النشيد »
 هذا النداء يخبرنا عنه « رامبو » في هذه الابيات :

« الشمس ينوع الحنان والحياة
 تسكب الحب المحرق على الارض المحرومة
 واذ نرقد في الوادي ، نحس
 بان الارض مراهة وتزخر بالدم ،
 وبان صدرها الرطب ، وقد شالت به نفس حارة
 هو حب كالله ، وجسد كالرأة » .

ولكن « الرخام » ذاك الجسد ذا « الوجوه الشبيهة بالاهلّة الناقصة ، والعيون المشقوقة مساكب للحنن ، والشفاة التي مسانت عليها انفاس القمر . الرخام البائع دمه وعرقه بالزاد ، والسافوف كاوراق الخريف ، والسكان الفرف الصغيرة ، ذات الحجار التي يعب منها البرد كما يعب من النبع طير البجع ، والذي يتطلع الى الشمس في مرآة مكسورة فاذا هي فتديل خريفي مكسور » . اقول ولكون « الرخام » يكاد يرفع دفني « النشيد » على منكبته اللذين يعظمان الى ان يصبحا خبزا للنسور :

« ايها العمال انتم خبز النسور ، واتعابكم هي العروق الشافرة في رخام المدينة . ولو لم تسكبوا رخامكم في شفاة الالهة المفطرسين ، لما عاش منهم صلوك واحد . فليفسلن اقدامكم نهر البنفسج ، وفي مطلع التشارين الحمر فلتمسحن جباهكم بالخمر ! »

ومما تصادفه غير مرة ايضا كلمة « القمح » التي فطر الشاعر بها اصداء كثيرة ، جعلها في قصيدته « موسم القمح والاقمار » .

وكلمة « النحاس التي تعني الفراغ والجدب تارة كما في :
 « الى الذين ما امرع البنفسج في احداقهم ، بل كانوا مسن

حصادي النحاس والصمت » .
 وطورا الاناشيد والخصب والعاوية كما في :

« انا الشرق صناجتي الفرح ، ونحاسي في مآقي الاطفال .
 - ولي دعاء باسيا وبافريقيا دعاء : بان ادفن جباه الفاتحين

وكرابيج المستعمرين ، لكي يولد النحاس والقمح في قلوب الفقراء .
 وكلمة « الرماد » التي تعني المرض والحزن في :

« ويظل بيتنا مرساة في خليج البرد ... وجرحا ينز بالرماد والقلق المصفر .

« هذا الفقير الذي ازدهر في عينيه ضحك الغربان ، ونجمه في حنجرتة رماد الخريف » .

وتعني المحرقة ورائحة الموت او التقاليد العفنة في :

« الفراغ الذي ازدهر رمادا على شفاة رجال الدين »

وتعني القساوة ويباس العاطفة في « يوميات شيخ جوعان » :

« ثم غابة من ظلال الناس ، راحت تصطك بها قدمي على قارة الطريق ! ظلال بلا غفران ! مآقيها مملوءة بالماج والرماد » .

وتعني الفرح والخير في :

« الى الذين اشتبهوا رائحة الرماد الاخضر » .

اخالك لاحظت مما اوردت لك على سبيل المثال ، ان الكلمة في « النشيد » تعلق بخليط ادناس . ذاك ان الكلمة في الشعر ، وفي الشعر الحديث بالتخصيص ، لا توجد وحدها ولنفسها . بل تنزل في وحدة الجملة وتستترق من انعكاسات جاراتها - كما سبق وقات - التي تتصافر على حمل الدنس المتجسد اخيرا صورة سوية .

ان هذه الصورة التي تتركب من بعض كلمات أي ادناس ، هي

التي تضع يدها على الكلمة لتنهها دنسها الخاص . وكلما كانت غير مألوفة ، كلما أوسعت مرايا المسقط الذهني وأمدت النطاق الانساني بأبعاد .

ولما كان نقولا قربان شاعر صورة . فانه قد سعى الى حذفها وتطويرها ، فوق نمو تفهمه لوظيفته كشاعر حديث مسؤول .

كان في « نيسان » مجموعة قصائده الثسرية الاولى ، يخط احيانا الصورة للصورة، كبعض صور جماعة «هيوم» و « ازرا باوند » . او ينتجه الى الطبيعة ليصف الانسان الصرف ، والطامع في ان يقبض على النسب الصحيحة القائمة بين فكرة الانسان وفكرة الكون ، والتي يعبر عنها بواسطة الصورة .

وذلك في شعر لم يجيء تركيا فوقيا موضوعيا ، ولا مواقف عقلية او فكرية معينة بل كان كشفا لمعنى الكائنات والاشياء على الذات في حدود الممكن . او انتقالا من الواقع المحسوس الى واقع لا محسوس متصل بتجربة الشاعر الشخصية ومحيطه وانطباعاته الفولكلورية . او تشبيها معجبا من وحي الملاحظة الدقيقة .

الصورة الحسية سمة هذا الشعر .

وبما ان نقولا قربان ابن القرية فقد استعمار الكثير من اجوائها وعاداتها ، منعمقا في الروح الطيبة الخيرة ، باحثا عن الزور التسي « يزرغ من مطلعها النهار ، ويصنع الناس من قلوبها ملاءق الفضة ، وتوزع العرق عبارات طاهرة » .

— د —

« انها قطع من عالم بعينه » . هذا ما لاحظته « مارسيل بروس » في كتابه « السجينة » في لوحات « فان در مير » .

وهذا ما يمكن ان يقال عن آثار كل شاعر شرعي .

ونقولا قربان في « نشيده » ، لا يقصق بهذا الخاتم . هنالك مناخ حيوي تنفس فيه القصائد ، فتحس وانت تقلبها ، بنبرة مرنة ، او مكتومة ، تترجع دون فتور ، في صغاف نهر الامل والفرح والحرية ، ونهر الشعب .

« الى الذين اشتبهوا رائحة الرماد الاخضر » . كانت النقصرة الاولى على وتر هذا « النشيد » .

تزوج في اللفظ ، يعود الى تائر الشاعر بجو القرية . ففسي القرى عادة ، يستعملون الموقد والوجاق للطبخ والتدفئة . والبيست الذي يشتهي صهيل موقد ووجاق يفضان بالرماد ، بيت حجساره تسعل على كف بومة . و « قفص ملعون » تختنق فيه الفصول ، وضحكات التراب الخضراء التي تولد مع طائر الحب الاخضر ، طائر الامل والبعث والحرية ، الذي يحيا من الرماد .

نقرة اولى ، تخزن بغنى المشاهد المتعددة للانسان الذي سيضج به « النشيد » .

فهو اما صبية تستحلف امها :

« احلفك يا امي باسم الحب ، لماذا ولدني في الظل ؟ فلكسم اشعر ان جسدي ورقة يابسة على كفتي ، احلفك بالحب يا امي ، أينها الافعى الزرقاء ، لماذا ولدني هكذا كحصاة في الصقيع ؟ ولكنني ساعيش ولاجملن جسدي هيكلا لثورة يجذف فيه جميع الصعاليك » . او كمحمود الذي كان يقف على الطريق ويده تفرع جرس الحقد : « وقف محمود يمد يده على الطريق ، والشمس جمجمة فسي كيسه . وفي عينيه عشر سنوات كفضن زيتون محمل . وكان يحس عين الناس تلسع جلده كقفير النحل »

او كسائلة تهيب بمار تري ، مفقل القلب والجيب ، ان ينفدها درهما بشكل الضحكة الحمراء ، وتروح تردد على مسمعه المحشمو بالرمال والاصداق :

« لو كان عندي ثمرة لزرتت في قلبك نسواتها الحية . واذا لذعتك الشمس تعال استظل بكفي » .

او كنبى ، ابن عامل من البسطاء ، ولد :

ل « يبشر بالمطاء ، وبموت الحروف السوداء والابدي التسي تخنق البراعم » .

الفقراء (1) في مشاهد ، اطار هذه المجموعة ، التسي تقدس هياكل الحرف الذي له رائحة الثورة والعمل . الحرف الذي يتحول الى صندل لمنسول ، ويشمل العاصفة في محجري محمود ، وبصرخ مع اصوات المناجل والماول والفؤوس والالات : الفد ، الفد ، الفد ، للفقراء :

« وبعد ايام ستولد اقمارنا الجديدة . يوم لا يموت بلبل فسي قفص ، ولا يهدم المدفع الجدران ، ولا ينبت الغار على رفات الاخرين ، وبعد ايام سنملا مزارعنا الاقمار ، فترى عيون البائسين ، مثل عناقيد مرمر وذهب ، ضاحكة في قلال من القصب » .

ان نقولا قربان بتصويره اولئك الذين اشتبهوا رائحة الرماد الاخضر ، يقدم لنا نماذج للانسان المتمرد . الانسان الذي يقول : لا ، ويكره كل نافوس خائن ، وتندفق من قلبه شهوات الشعب ، ويحلم بالثورة وهو صبي . والذي تصطفق في جنبه نوافذ الحضارة - ما زالت -

هذه ال « لا » هي محور « النشيد » . وهي الدافعة اصلا بالشاعر الى تفجيرها زوابع نار من لحم ودم . انها تعابسه ، وتنقي على شفثيه فراشات صندوق بندورا .

قد تتحسس بعض النماذج ، واذا هي خلو منها لوهمك . والواقع انها من خلف هذا البعض .

ان قصيدة « بانعة الدجاج » مثلا ، هي لوحة قروية بسيطة هادئة النبرة قبالة اخوات لها . ولكنها تخفي نقمة مكتومة ، وقرفسا مهوسا من الوضع الذي تتردى فيه البانعة ، وتطاعا الى مستقبل مجدل برائحة الرماد الاخضر من غير ما تصريح :

« عندما ربطت دجاجتي بأرجلهسا وحملتها الى السوق ، شعرت بالفراغ يملا قلبي ، لانني عشت معها ، وأطعمتها على يسدي ، وفكرت بها في ليلة عرسي .

« واني أشعر كلما بعث دجاجة او ديكاً بفضة في صدري ، ولكننا قريون فقراء ، وسنشترى بئمنها قميصا ولقافة لطفنا الذي سيولد على عتبة الشتاء ، وستارا لنافذنا المكسرة الزجاج ، لئلا تطفئ ريج الشمال سراجنا ويدهمنا الثلج والمطر » .

أسطر بعثت في نفسي ما آثارته هذه الابيات لناظم حكمت مسن قصيدته : « البنفسجات الصهباء ، الاصداق الجياع ، والطفلة ذات العينين الذهبيتين » :

« وانسل الصيف من امام أنفي

زاعقا بصرخات مجنونة

دون ان اتمكن من ان اجلب لك

باقة من البنفسجات الصهباء .

ما لعمل

فالاصداق كانوا جياعا

فاكلنا ثمن البنفسجات » .

لقد استطاع الشاعر ، حتى اذا همس ، ان يتقلنا الى مدار الصخب ، وان يفرس في ذواتنا بطريق غير مباشرة ما غرسه مباشرة .

ان عناصر مثل القدرة التصويرية ، والدراسة الدقيقة للوحات ، والارتباط الوثيق بالارض ، وحب الانسان ، والإيمان بالكلمة المدنسة ، والروح المتمردة التي نطالها لديه . يمكنها ان تشاء في الشعر .

عناصر تدعمها اخرى أوجزتها لك ، كان لها ان تبارك ، مفسارق قصائد النثر في « نشيد الرخام والشمس » .

تري ، هل هي وثبة « ايكارية » لقصيدة النثر؟! .

هاني صعب

(1) بهذا الاسم كان ينوي نقولا قربان اصدار مجموعته اولا .